الفصل الثاني

فلسفة سانتيانا المادية

(1): المادية[*] وبدايات التفكير الفلسفي

لقد عرفت المادة Matter. كمقولة فلسفية منذ القدم، فمنذ الجملة الأولى في كتاب تاريخ المادية History of Materialism ـ للانجه[**] Lange نجد أن «لانجه» عبر عن الارتباط الوثيق بين المادية والفلسفة بقوله «إن المادية قديمةٌ قدم الفلسفة، ولكنها ليست أقدم منها[3]. فرفض بهذا القول ما أشيع بغير حق من أن المادية عقيدة العقل الساذج[4].

(*) يطلق المذهب المادي Materialism ـ على أنحاء شتي، فيراد به في مجال ما بعد الطبيعة أي الميتافيزيقا ـ تفسير الوجود بالمادة وحدها، ويقابله المذهب الروحي Spiritualism، ويراد به في الأخلاق Ethics ـ عقيدة الذين يرون أن غاية الأفعال الإنسانية ينبغي أن تكون تحقيق الخيرات المادية من لذة ومال وطعام وشهرة وغيرها، ويراد به في التاريخ ـ المذهب الذي يرد حضارات الأمم وعاداتها ومعتقداتها ونظمها وحياتها العلمية والفنية إلى أسباب اقتصادية، وقد يطلق المذهب المادي على المذهب الطبيعي Naturalism ـ في صورته الاعتقادية، وهو المذهب الذي يصف الكون بألفاظ العلوم الطبيعية، فيعتقد الماديون أن في العلوم الطبيعية وحدها تقوم المعرفة الممكنة، ويتخذ المذهب المادي صورًا شتي كالوضعية Positivism، واللا أدرية Agnostisism بالإضافة إلى المذهب الطبيعي السالف.
انظر ـ توفيق الطويل: أسس الفلسفة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1952، هامش ص 88.

(**) هو فريدرش ألبرت لانجه، ولد عام 1928، قام بالتدريس لفترة قصيرة في جامعة «كولونيا» ثم عاد إلى «بون» ـ ليحاضر في التربية وعلم النفس والأخلاق وفي تاريخ المذهب المادي، ومن «بون» ـ انتقل إلى «دويسبرج» ولكنه اضطر إلى الاستقالة من عمله في التدريس نتيجة لنشاطه السياسي في عام 1861م، وتوفي في نوفمبر لسنة 1875م.
انظر ـ فؤاد زكريا: آفاق الفلسفة، مكتبة مصر، القاهرة، 1991م، ص ص 214، 381.

(3) لانجه: تاريخ المادية، ترجمة/ فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994، ص 19.

(4) توفيق الطويل: أسس الفلسفة، مرجع سابق، ص.88

وعليها تبدو النزعة المادية كما يقول. «لانجه» ـ مرتبطة في بداية ظهورها بنشأة الفلسفة ذاتها، فهي ليست مذهبًا ضئيل الشأن من وجهة النظر الفلسفية، ولكنها في الوقت ذاته ينبغي ألا تدعي الترفع عن الفلسفة والارتباط بوحدة العلم[1].

وتأكيدًا لما سبق، فإن النزعة المادية ظهرت منذ القدم عند فلاسفة اليونان الأوائل أمثال ديمقريطس وأنبادقليس وأبيقور، كما ظهرت في عصر «ديكارت» عند القسيس الكاثوليكي الفرنسي بيير جاسندي (1592-1655) Pierre Gassendi ـ وظهرت أيضًا عند توماس هوبز (1588-1679) T. Hobbes في انجلترا، وتجددت طوال القرون الثلاثة الأخيرة إلى اليوم[2].

فالقضية الأساسية للمادية هي أنه لا يوجد إلا المادة وتغيراتها، أي الجوهر المادي وكيفياته المتغيرة، وفكرة التغيرات أو الكيفيات هذه هامة، لأن المادية تعطي معنى لوجود أمور كالأفكار والعواطف مثلًا، فالمادي لا ينكر هذه الوقائع الواضحة ولكنه يقول أنها لا تدل على وجود شيء مغاير للمادة كالنفس أو الروح، وإنما هي مجرد تغيرات وكيفيات للمادة نفسها وحسب، ومن ثم فليس هناك إلا المادة وتغيراتها[3].

وبذلك ظهرت المادية التاريخية Historical Materialism ـ وهي جزء أساسي في الفلسفة الماركسية اللينينية والفلسفة الاجتماعية، وتتلخص رؤيتها للمادية ـ في أن الوقائع الاقتصادية أساس كل الظواهر التاريخية والاجتماعية وهي التي تقوم بتحديدها وهي تقابل المثالية التاريخية Historical Idealism ـ التي تؤمن بأن للمؤثرات الفكرية والروحية شأنها في تحديد شكل الوقائع الأولى للحياة الاقتصادية، ومن المادية التاريخية ظهرت المادية الجدلية Dialectical Materialism ـ ومن أهم آرائها أن مظاهر الوجود على اختلافها جاءت نتيجة تطور مستمر للمادة[4].

(1) فؤاد زكريا: آفاق الفلسفة، مرجع سابق، ص 222.

(2) محمد ثابت الفندي: مع الفيلسوف، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2003، ص 244.

(3) المرجع السابق: نفس الصفحة.

(4) جان فال: طريق الفيلسوف، ترجمة/ أحمد حمدي محمود، أبو العلا عفيفي، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1967م، ص 130.

والمادية الجدلية هذه ـ تنقد بكل تأكيد النظريات المادية السابقة عليها، ولكن نقدها لا ينصب عليها من حيث أنها مادية، وإنما فقط من حيث إنها غير جدلية، أي من حيث أنها فاقدة لفكرة صحيحة للتطور[1].

فالمادة في تطور دائم وبفضل هذا التطور تظهر كائنات متصاعدة التعقيد ابتداءً ـ من الذرة إلى الإنسان والمجتمعات، والتطور ليس دائريًا وإنما في خط واحد وفي اتجاه متفائل حيث إن أكثر الكائنات تعقيدًا هو أرقاها. وهذا التطور يتألف من سلسلة من الثورات أو الانتقاضات، ومن ثم فالصراع هو القوة الدافعة للتطور الذي يتقدم بطفرات ـ ذلك هو التطور الجدلي[2].

كما ظهر ما يسمي أيضًا بالمادية العقلانية ـ Rational Materialism عند جاستون باشلار Gaston Bashlar (1884-1962) ـ وهي تسعي لتأكيد العلم بطريقة أخرى غير طريقة الفصل الكامل بين الحياة العقلية وبين الحياة الاستحلامية، فلابد أن نقبل في نظر المادية العقلانية حياة مزدوجة، فيتوفر للبحث العلمي أساس مزدوج مبني على التاريخ الطبيعي البشري الكامل[3]. ثم تطور مفهوم المادة لدي برترند رسل (1872-1970) Bertrand Russell - ـ لا تطورًا واحدًا، بل عدة تطورات حيث أفاد «رسل» من الدراسات التي كانت تصدر في عصره تباعًا، ففي بداية عمله الفلسفي سلم «رسل» بثنائية العقل والمادة بوصفهما شيئين مختلفين تمامًا، فالموضوعات المادية تختلف اختلافًا بينًا عن الأذهان، وما تحتويه من أفكار[4].

ثم تنكر «رسل» لهذه الثنائية السيكوفيزيقية، وتحول عنها إلى مذهب الواحدية المحايدة Natural Monism ـ ومؤداه أن «الأشياء التي نعتبرها ذهنية والأشياء التي نعتبرها فيزيقية لا تختلف على وجه يكون معه لأحدهما خاصية ذاتية لا تكون للأخري، بل تختلف فقط من ناحية التنظيم أو السياق» فالعقل والماده يتركبان من نفس النسيج، ولكن بتنظيم مختلف[5].

(1) محمد ثابت الفندي: مع الفيلسوف، مرجع سابق، ص 245.

(2) المرجع السابق: ص ص 247،248.

(3) عبد الفتاح الديدي: الاتجاهات المعاصرة في الفلسفة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985م، ص 101.

(4) محمد مهران: فلسفة برتراند رسل، دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة، 1979م، ص 42.

(5) المرجع السابق: ص ص 52،53.

وهنا تبدو المادة هي الأساس الأول الذي نشأت عليه النزعة الطبيعية في شتي اتجاهات الفكر الفلسفي، وهذا ما أكده ـ بوشنسكي ـ في قوله «أن جميع المفكرين الذين ينتمون إلى الفلسفة المادية هم في ماديتهم طبيعيون لأنهم لايرون في الإنسان إلا جزءًا من كل هو الطبيعة، وينكرون بصفه عامة أن يكون الإنسان كائنًا مميزًا على الكائنات الطبيعية الأخرى، وهم أيضًا علميون بدرجة تزيد أو تقل، وبعبارة أخرى هم عقلانيون صراحة ويميلون ناحية المذهب المادي»[1].

(2) طبيعة المادية عند سانتيانا

هل كان سانتيانا فيلسوفًا ماديًا؟ وإذا كان كذلك فإلي أي مدي وبأي معنى كان ماديًا؟ وما هي صفات تلك المادة؟

كلها تساؤلات تستحق دراسات منفصله في ذاتها. ولكنها يمكن أن تثار هنا فقط داخل السياق العام لهذا البحث، ومن ثم تكون الإجابات التي ستقدم محدودة العمق واليقين.

لقد جاء على لسان ول ديورانت Will Durant ـ أن سانتيانا يقول «إنني في الفلسفة الطبيعية مادي صميم ـ ولكني لا أزعم أنني أعرف ما هي المادة في ذاتها... بل أنتظر من رجال العلم أن يخبروني بها... ولكن مهما تكن المادة فأنا أسميها مادة بكل جرأة، كما اسمي معارفي وأصدقائي «سميث» و«جونز» من غير أن أعرف أسرارهم»[2].

إن الأدلة التي تؤكد ذلك القول في فلسفة سانتيانا هي أن سانتيانا جعل الاعتقاد في المادة اعتقادا حتميا، حيث أعطي سانتيانا مثال يوضح فيه ذلك، وهو أن الكلب الجائع يجب أن يصدق أن العظمة التي أمامه عبارة عن مادة ملموسة، وليست عبارة عن ماهية لهذه المادة، فعندما يمسك الكلب بهذه العظمة، فإن الاعتقاد يتحول إلى

(1) إ. م. بوشنسكي: الفلسفة المعاصرة في أوروبا، ترجمة / عزت قرني، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 1992،65، ص 79.

(2) ول ديورانت: قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، ترجمة / فتح الله محمد المشعشع، منشورات مكتبة المعارف، الطبعة السادسة، بيروت، 1988، ص 605.

إيمان راسخ، وأنه ربما يتحول إلى كلب غير مخلص إذا أنكر في هذه اللحظة ذلك الإيمان بهذه الحقيقة، وينطبق هذا المثال كما يقول سانتيانا على ذاتي الشخصية أيضا، فعندما أكون على قيد الحياة، فإنه يكون من عدم الأمانة وعدم الإخلاص أن ننكر الاعتقاد والتصديق بهذه المادة، وليس هذا يكون من عدم الإخلاص فقط، بل يكون أيضا من الغباء، لأنني إذا كنت ممن يلاحظ جيدا، فإن الملاحظة سوف تقودني إلى دليل قاطع في الاعتقاد بهذه المادة[1].

ويحاول سانتيانا تأكيد قوله السالف، فيري أن الملاحظة ذاتها تفترض بالطبع الاعتقاد في هذه المحادثة السابقة وهذه الخبرة أيضا، حيث تفترض الخبرة أنني أستطيع أن أدرك الماهيات، فتذكر أشكالها الظاهرة مع سياقات الكلام وتقوم بالمقارنة بين الصور الظاهرة مع اللحظات الحالية لتلك الأحداث أو مع الماهيات المختلفة التي تظهر في الآن بدلا منها. فعندما أقوم بمعاينة تجربتي على هذه الطريقة فإن ترتيب هذه المظاهر سواء في الذاكرة أو الافتراض ينصب أمامي بأنه سوف يؤكد هذا الإقتاع الذي قد تم إنجازه بواسطة هذه المظاهر بشكل منفصل، كما سوف يوضح لي كيفية كون الغريزة مؤسسة على دافع قوي، تلك الغريزة التي أخبرتني، أنه عندما رأيت بعضا من تلك الماهية العارضة، والتي كانت علامة لشيء ما يحدث في عالم مستقل ومستمر ومتطور ذاتيا بل في عالم لا يعرف حدود، فلو كانت الخبرة، أو التجربة تؤكد الاعتقاد في المادة، فإن الخبرة والتجربة التي يتم دراستها تؤكد الاعتقاد في الطبيعة[2].

ولم يكتف سانتيانا بهذا القدر، بل أكد على أن المادة من الممكن أن تكون هي الجاذبية أو هي عبارة عن شحنة كهربيائية Electric Charge أو هي توتر في غاز الأثير[3]، حيث جعل النزعة المادية تؤيد وتبرر بالفعل تحليل نظرية المعرفة، بمعنى أن الإيمان يكون عن طريق الرموز، لأن الحياة الجسدية بالنسبة لعالم الطبيعة تمثل

(1) G. Santayana: Scepticism and Animal Faith, Dover Publications, Ine, New York, 1923, P.233.

(2) G. Santayana: Scepticism and Animal Faith, op. cit, P 233.

(3) G. Santayana: General Confession, op. cit, P. 19.

الأساس الواضح للعواطف الأخلاقية من الألم والخوف وكل أنواع الرغبة، بينما الشدائد الواضحة والحتمية بين الكائن الحيواني وباقي ممثلي العالم، فهي تعتبر العواطف الأخلاقية عناصر مساندة وظاهرية وتقوم بتحويلهم إلى معرفة[1].

ولكن هذا النوع من الإحساس لا يمكن أن يخلق داخل الحيوان شعور بشكل وجودي وبصورة متشابهة مع المادة التي تبرز هذا الإحساس. وهذا الإحساس يمكن أن يكون عبارة عن إشارة أو علامة، لذا فإن كل من الدلالة الانتقالية والحالة الموضوعية للحيوان التي تتناسب مع كل العقول تكون بمثابة نتائج للنزعة المادية[2].

وهنا يتساءل سانتيانا قائلا: إذا كانت نزعتي المادية هي أساس فلسفتي، فربما يسأل سائلٌ قائلا: ماذا تكون هذه النزعة المادية التي أنادي بها؟

يجيب سانتيانا بأن فلسفته ليست مجرد رأي اكاديمي قد تم تبنيه، وذلك لأن الاتجاهات الأكاديمية تبدو في أي لحظة أنها تستحسنه، فأنا لا أهتم كثيرا عما إذا كانت الاتجاهات الأكاديمية في أي لحظة تفضل إحدي الآراء غير الضرورية أو تفضل الأخرى، فأنا أسأل نفسي ما هي القضايا الرئيسية التي لا استطيع العيش دون فعلها، فأنا أجد هذه القضايا تجتمع في كلمة واحدة هي المادية، فهذه الكلمة تشير في المقام الأول إلى أنني أجد نفسي محمولا بواسطة محرك آلي كبير يتحرك من الماضي إلى المستقبل، ولا تعطيني أي سببٍ لوجودها أو سببٍ لوجودي. أن الوجود ليس له مبرر لوجوده، وكذلك الماهية ليس لها مبرر لوجودها، حتى لو فكرت بنفسي أن أجد مبررًا لها فإنني يجب أن أبحث عن مبرر لهذا المبرر أو أساسٍ لهذا الأساس[3].

ومن خلال النصوص السالفة الذكر يتضح أن ـ سانتيانا يؤمن إيمانًا عميقًا بوجود المادة، فهو يعلن في صراحة أن النزعة المادية أو الطبيعية ليست عبارة عن رأي أكاديمي، وليست بقاءً لمن يزعمون لأنفسهم المادية في القرن التاسع عشر، عندما

(1) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua, in The Philosophy of George Santayana, Edited by P.A. Schilpp, Tudor Publishing Company, New York, 1951, P. 504.
(2) Ibid: P. 504.
(3) Ibid: PP. 504, 505.

كان أساتـذة الفلسفة يدينـون بالمثاليةIdealism[1]. ولكنها إيمان راسخ كان يأتيني كل يوم كما كان يأتي والدي من قبل عن طريق الخبرة والملاحظة حول العالم الكبير، وبالأخص فإن النزعة المادية متأصلة في عواطفي ومشاعري الخاصة[2]. فالمادة كما يقول سانتيانا قادرة على استنباط المشاعر والأفكار التي تأتي بالضرورة من المبدأ الذي يقول بأن المادة هي الجوهر الوحيد والقوة الكبيرة، أو هي الوسيط في هذا الكون، وهذا لا يعني أن تكون المادة هي الحقيقة الوحيدة فقط، بل هي المبدأ الأول للنزعة المادية[3].

وعلى ذلك ـ تكون فكرة المادة في فلسفة سانتيانا فكرة قديمة، أتته عندما كان يعيش في كنف أبيه في أسبانيا، أي قبل أن يرحل مع أمه إلى أمريكا في التاسعة من عمره، بل إن فكرة المادة متأصلة في عواطفه، أي أنه أتي إلى هارفارد ماديًا صميمًا أو طبيعي النزعة[4]. وهذا دليل واضح يؤكد على أن الفيلسوف محل الدراسة أخبرنا بأن حقيقة النزعة المادية أصبحت واضحة المعالم له في سن مبكرة، وذلك عندما وصف نفسه بأنه مؤمن بالنزعة المادية، فهو لا يعني بذلك كما يقول «اسبريج» أنه يعتقد بهذه الموجودات المادية التي كونت الواقعية الفردية، فعندما يصف نفسه بأنه مادي النزعة فإنه يؤكد اعتقاده وإيمانه الراسخ بالوجود الواقعي لهذا العالم المادي كشيء مستقل عن العقل[5].

وتكمن أهمية المادية في كونها أولا لم يتم التفكير فيها ولا في الافتراضات الخاصة بها التي تقع في جزء من هذا النظام، وكذلك في توقعات التجربة الشعورية، وثانيها في كون المادية تمثل الحقيقة المؤثرة فقط في وجودها، وهذه الأسباب كلها أسباب طبيعية[6].

(1) المثالية Idealism ـ إتجاه فلسفي يرجع كل وجود إلى الفكر وأن الأشياء الواقعية ليست شيئًا آخر غير أفكارنا نحن، وأنه ليس هناك حقيقة إلا ذواتنا المفكرة، أما وجود الأشياء فقائم في أن تكون مدركة عن طريق هذه الذوات ولا حقيقة لها وراء ذلك.

انظر ـ يحيي هويدي: مقدمة في الفلسفة العامة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 2001، ص 222.

(2) G. Santayana: General Confession, op. cit, P. 12.

(3) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua , op. cit, P. 509.

(4) هنري توماس ودانالي توماس: المفكرون من سقراط إلى سارتر، مرجع سابق، ص 471.

(5) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, op. cit, p.125.

(6) Ibid: P. 125.

ونظرًا لطبيعة سانتيانا المادية منذ نشأته الأولى، فهو يرى أن الكثيرين من أساتذة الفلسفة قد طردوا حديثًا كلمة «المادة» من كتاباتهم، حيث يقول «عندما كنت غير قادر على طرد المادة من العالم، فإنني أفضل أن أحتفظ بالاسم الذي أطلقه عليها القدامي الذين كانوا يتمتعون بعقول متفتحة متحررة غير مغلقة، وقد بدا العالم المادي والعالم السياسي على السواء في ذلك الحين أفضل ملائمة لمكانة الإنسان، فالناس لم يضطروا إلا في زمن الانحطاط والسفسطائيين إلى اللجوء إلى ذاتية[1] حزينة أو رخيصة هربًا من ثقل العالم الساحق وتعقيداته»[2].

وهنا يؤكد سانتيانا حقيقة هامة وهي أن الاتجاه المادي الذي يتبناه عبارة عن إدراك عادي وبسيط، يتم تدعيمه في صدقه الواضح، ولكن يتم نقد الاتجاه في تحرره، إن النزعة المادية كما يقول سانتيانا هي مبدأ جميع الاكتشافات الطبيعية والعلمية، إنها افتراض أفضل من كونها استنتاجا، إنها ليست مبدأ لجميع العلوم الطبيعية فقط، ولكنها مبدأ لجميع الأفعال المقصودة، ففي أي لحظة أفكر فيها أو أمتثل فيها لحكم ما، أو أحكم فيها، فإنني افترض بأنه يوجد عالم ديناميكي حركي في تلك اللحظة التي أبحث فيها[3].

يقول سانتيانا «إن المادية تجدد بزوغ الذكاء في العقل الحيواني، فأنا لست متأكدًا بأنه ربما لا يوجد هذا الذكاء في العقل مبكرا، كما لا يوجد فيه لاحقا بعد ذلك، ولكن يوجد مع الحياة الأولية والأفعال الفطرية والإحساسات الطبيعية التي تصبح موضوعية ومتوقعة ومليئة بكل التأكيدات والقصدية المثالية، إن المادية تصبح طريقة للمعرفة، وليست معرفة في ذاتها، ولكن تكون من خلال إحساساتها الخاصة، كما أن مصطلحاتها الفكرية عبارة عن معرفة لهذا العالم المادي الحقيقي والذي يكون الجسم الحسي جزءا مرتبطا بها»[4].

(1) المذهب الذاتي أو الذاتية Subjectivism ـ يطلق على الاتجاه الفلسفي الذي يرجع كل حكم، وجوديًا كان أو تقديريًا، إلى أحوال، أو أفعال شعورية فردية.
انظر ـ جميل صلبيا: المعجم الفلسفي، المجلد الأول، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، بيروت، 1971، ص 583.

(2) جورج سانتيانا: مولد الفكر وبحوث فلسفية أخرى، ترجمة لجنة من الأساتذة الجامعيين، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، د. ت، ص 130.

(3) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua, op. cit, PP. 505, 506.

(4) Ibid: P. 506.

وعندما نظر سانتيانا إلى الوجود كوحدة متماسكة ـ أو كحركة صاعدة للخليقة في سيرها نحو السمو والرفعة. قال سانتيانا: «قد لا تكون المادة مواد» «والأرجح» أنها شحنة كهربية ـ أو بمعنى آخر موجة شاملة من الحيوية تتخلل كل شيء فتصنع النظام اللانهائي للكون[1]. ولكن اعترف سانتيانا منذ البدء أنه لا يعرف كنه هذه المادة، وترك ذلك إلى العلماء المختصين، ولكن أقر بأنه يعرف بعض خصائصها العامة، منها أن المادة قد تكون زمانية مكانية، كما تكون ممتدة ومؤلفة من أجزاء كل جزء منها منفصل عن الآخر، وإن تكن بين هذه الأجزاء علاقات تربطها بعضها ببعض، غير أن تلك العلاقات ليست جزءًا من طبيعتها، بل هي علاقات تتغير، وذلك مساو لقولنا ـ إن أجزاء المادة تتحرك ولا تستقر في مكان بعينه، وكلما تحركت تغيرت بالتالي مجموعة العلاقات التي تصلها بعضها ببعض، بل قد تغير حركتها تلك من خصائصها الذاتية، وإذًا فالمادة سيال متدفق دائم الحركة دائب التغير، كما أن توزيع أجزائها على المكان والزمان ما ينفك يتغير، فينشأ عن هذا التغير تكون الأجسام والحوادث، وما قد يتركب من الأجسام والحوادث من تركيبات مختلفة التكوين متنوعة البناء[2].

يؤكد سانتيانا أنه على الرغم من تغير المادة وصيرورتها، إلا أنها تعترف بذلك فيقول تأكيدًا لما سبق: أن المادة تنطق قائلة «أنني أتغير، ولكنني لا أموت أبدًا»[3]. لذا كان من ضمن خصائصها «الامتداد وعدم القابلية للاختراق»[4].

وعندما كانت للمادة كل هذه الخصائص عند سانتيانا ؛ فإنه يفرد لها كتابًا خاصًا بها، ظهر ضمن مجموعة «عوالم الوجود» The Realms of Being ـ تحت اسم عالم المادة "The Realm of Matter" ـ وقف فيه سانتيانا مدافعًا عن مادته، لأنها في نظره مبدأ الوجود الطبيعي، فيقول في مقدمة كتابه هذا «أن المادة تواجه إجحافًا من معظم

(1) هنري توماس: أعلام الفلاسفة ـ كيف نفهمهم، مرجع سابق، ص 388.

(2) زكي نجيب محمود: حياة الفكر في العالم الجديد، دار الشروق، الطبعة الثانية، بيروت، 1982، ص ص 208، 209.

(3) جورج سانتيانا: مولد الفكر وبحوث فلسفية أخرى، مصدر سابق، ص 132.

(4) هنتر ميد: الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، ترجمة/ فؤاد زكريا، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الطبعة الثانية، القاهرة، 1975، ص 428.

الناس، على الرغم من أن الغالبية العظمي منهم تقدر الأشياء المادية، فيراها الفيلسوف الأخلاقي البغيض أنها شر، لأنها في نظره مشئومة، وهي سبب النقص أو النزاع في الأشياء، ولكن إذا نظر إليها الفيلسوف الأخلاقي نظرة أرحب وأشمل وجدها خيرًا، بل هي مبدأ الوجود وأصل جميع الأشياء الطبيعية في صورتها الممكنة، أما بالنسبة للميتافيزيقين، فإنهم لا يعترضون عليها لكونها أصل الشرور في العالم، بل لكونها غير مجدية للعالم ولا نفع فيها، كما أنها مجهولة لديهم ويعتبرونها في أحيان كثيرة غير موجودة أصلًا في هذا العالم»[1].

كما أن هؤلاء الفلاسفة كما يقول سانتيانا الذين يرفضون ويدحضون أي انقسام واضح وصريح بين المادة والعقل، أنهم ينساقون هنا إلى ما يسمي المبالغة في التحفظ، فالماضي ينظر إلى المستقبل بشكل مادي، حيث تلح المادة على الحاضر طبقا للفكرة القديمة للحفاظ على الطاقة بشكل كمي وأيضا بشكل ديناميكي، وذلك على الرغم من وجود الشك وعدم التأكيد في ثبات المادة واتاحة الطاقة بالنسبة إلى الحركة الأبدية أو الحياة[2].

أما عند سانتيانا فليس ثمة شك في وجود هذه المادة، لأن المادة عنده لم تكن غير اسم لمبدأ الوجود نفسه مهما كان شأن هذا المبدأ، فقد كانت المادة بمثابرتها وحركاتها الخفية هي التي جعلت الظواهر تبرز هنا وهناك، كارتفاع الماء في وعاء الغليان وتحوله إلى بخار ثم تساقطه مرة أخرى مطرًا من إحدي الغيوم[3].

ويترتب على ما سبق، أن تكون المادة عند سانتيانا هي الشيء الموجود أبدًا المنتشر في كل مكان، والذي يدخل في صنع السماء والأرض وأوراق الشجر وأوراق الزهر وأجسام الناس، بل وعقول الناس أيضًا، لأن العقل البشري مادي، شأنه في ذلك شأن الجسم البشري عرضة للمولد والنمو والذبول والفناء[4].

(1) G. Santayana: Realm of Being, one volume Edition, With A New Introduction By the Author, Charles Scribner›s Sons, NewYork, 1942, P. 183.

(2) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua, op. cit, P. 593.

(3) جورج سانتيانا: مولد الفكر وبحوث فلسفية أخرى، مصدر سابق، ص 131.

(4) هنري توماس ودانالي توماس: المفكرون من سقراط إلى سارتر، مرجع سابق، ص 477.

(3) الحياد بين الجوهر والمادة

لقد أضفي سانتيانا نزعته المادية على فكرة الجوهر Substance[1]، عندما تناوله في سياق فلسفته بالشرح والتفسير، وبطريقة تبدو منطقية حتى تتفق مع اتجاهه العام، فالجوهر لا يطبق إلا على الأشياء المادية، حيث تسيطر المادة ككل على كل ما تأتي به النفس من أفعال، فتعمل المادة على صياغة أفعال النفس وصبغها بصبغتها[2].

ويتضح من ذلك أن الجوهر عند سانتيانا يعد مفهومًا ماديًا صرفًا، حيث يعتبر الجوهر لديه هو المادة يتناولهما بالتبادل، أي أنه يمكن لأحدهما أن يحل محل الآخر[3]. حيث أكد سانتيانا على أن صيرورة الوجود أو جريانه، وكذلك الاستمرارية التي تحدث بقدرات محددة في الزمان والمكان والكمية، فهذه القدرات المحددة عند سانتيانا تتواجد عبر أماكن وأزمنة معينة، وهي بالتأكيد ما يعنيه مفهوم الجوهر، بل أصر سانتيانا على أن يتبني ذلك التعريف لمفهوم المادة[4]، فالجوهر في كل مكان هو

(1) يطلق الجوهر Substance ـ عند الفلاسفة على معان عدة: منها الموجود القائم بنفسه حادثًا كان أو قديمًا ويقابله العرض. ومنها الذات القابلة لتوارد الصفات المتضادة عليها، ومنها الماهية التي إذا وجدت في الأعيان كانت في غير موضوع، ومنها الموجود الغني عن محل يحل فيه.
قال عنه «ديكارت». هو الشيء الدائم الثابت الذي يقبل توارد الصفات المتضادة عليه، من دون أن يتغير، كاللون، والرائحة، واللين، والطعم، والبرودة والحرارة التي تتوارد على قطعة الشمع، فهي أعراض متغيرة، أما جوهر الشمعة فدائم لا يتغير، كما قال «ديكارت» أيضًا عندما نتصوره موجودًا غير محتاج في وجوده إلى شيء آخر غير نفسه، وليس هناك في حقيقة الأمر جوهر له مثل هذه الصفة غير الله. ولكل جوهر محمول أول، أو خاصة رئيسية، فخاصة النفس هي الفكر، وخاصة الجسم هي الامتداد. والجوهر عند «اسبينوزا» هو القائم بذاته، والمدرك لذاته. وعند «كانط» ـ هو أولى مقولات الإضافة، وهو تصور قبلي ناشيء عن صورة الحكم المطلق من حيث أنه إسناد محمول إلى موضوع أو دفعه عنه. وكذلك الجوهر هو الشيء الذي يحمل الخواص ويعتريه التغير، ويعرف أحيانًا على أنه ذلك الذي بإمكانه أن يوجد الشيء وجودًا مستقلًا.
انظر ـ جميل صليبا: المعجم الفلسفي، المجلد الأول، مرجع سابق، ص ص 424،425.
ـ وليم جيمس إيرل: مدخل إلى الفلسفة، ترجمة/ عادل مصطفي، مراجعة/ يمني طريف الخولي، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، القاهرة، 2005، ص 435.
(2) Richard Butler: The Mind of Santayana, op. cit, P. 90.
(3) Ibid: p. 90.
(4) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua, op. cit, P. 586.

عبارة عن جوهر الأحداث وليس جوهر الأشياء التي لا يمكن تغيرها أو تحويلها[1]. ولكن لا يجب أن تكون المادة بهذا المعني عبارة عن فكر فكر لشيء ليست له صفة أو خاصية، فالمادة في كل مكان في العالم يجب أن تأخذ صفة محددة، كما تقف المادة في علاقات محددة في جميع الأماكن والمواقف، وعلى الرغم من ذلك فهي عبارة عن شيء ما أكثر من كونها صفة أو خاصية لهذا الشيء طالما أنها سوف تنتقل إلى حقيقة أخرى تكون فيها بصفة مختلفة، وطالما لها خاصية أيضا تكون بشكل تام من أجل كينونتها[2].

وفي المثال التالي تظهر حقيقة كل من المادة والجوهر على أنهما عبارة عن حقيقة واحدة لمفهوم واحد يصب دائمًا في النزعة المادية التي تعد الأساس لشتي المفاهيم الفلسفية، فتكمن حقيقة المثال في أن الدقيق الذي تصنع منه قطعة الكعك عبارة عن مادة من إحدي نواحيه، ومن الناحية الأخرى فإن الكعكة ذاتها عبارة عن مادة أيضا (بالنسبة للإنسان مثلا) وبهذا المعني فإن الكعكة من الممكن أن تصبح مادة وجوهر وذلك عندما تكون فيما بعد مستخدمة كنوع من الحلوي ملائما لكل تأييد أو تدعيم. ومن هنا فإن سانتيانا ينكر أن يكون هناك اختلاف أساسي بين كلمة المادة والجوهر[3].

إذا كان الجوهر لا يطبق إلا على الأشياء المادية، فإن سانتيانا قرر أن يكون الجوهر ليس مجرد إطار محدد لأفضل ما نأمله للبشرية أو للكون، وإنما يعيش الناس متعلقين بالآمال والمثل والقيم والحياة المتوازنة منطقيًا، وإن كان ذلك لا ينسينا أن الجوهر، كما يكون لأشياء نحبها أو نعجب بها، بما تستلهمه مشاعرنا نحوها، يكون أيضًا لأشياء سيئة أو لا مذاق لها[4].

ويتضح من ذلك أنه ـ إذا كان وصف القيمة أو انعدامها ينطبق على المادة، فإنه

(1) G. Santayana: Scepticism and Animal Faith, op. cit, P. 232.
(2) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, op. cit, p. 149.
(3) Ibid: p. 151.
(4) موريس جروسمان: دراسة واقعية حول فلسفة الشك في عالم سانتيانا، بحث منشور في كتاب ـ تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال 200 عام، إعداد / بيتركاز، ترجمة / حسني نصار، مراجعة/ مراد وهبه، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1983، ص 259.

ينطبق أيضًا على الجوهر، لأن الجوهر لا يقل قيمة عن المادة في فلسفة سانتيانا المادية، بل إننا نجد سانتيانا يساوي بين فكرة الجوهر والمادة.

يرى سانتيانا أن أهم القواعد الأساسية التي لا يستطيع العيش بدونها تتلخص في كلمة واحدة هي المادية Materialism ـ وهذه الكلمة تعني في المركز الأول كما يقول سانتيانا ـ أنني أجد نفسي محمولًا بقوة كبيرة من قبل محرك آلي عظيم يدفعني من الماضي إلى المستقبل دون إعطائي أي سبب لوجودها أو وجودي[1]. لذلك يصبح عالم المادة The Realm of Matter في فلسفة سانتيانا عبارة عن تصنيف قائم بذاته، وأن أي جوهر هو عنصر في مثل هذا التصنيف، وكذلك عالم الجوهر هو تصنيف آخر قائم بذاته، ومن ثم فإن أي جوهر يعتبر مع غيره من الجواهر عنصر لذات نفسه[2].

وينتهي سانتيانا في نهاية المطاف في العلاقة بين الجوهر والمادة، إلى قوله «لابد من تجنب سوء الفهم، لنتذكر أن الجوهر والمادة والحقيقة والروح... ليست في رأيي ـ مناطق كونية منفصلة، ولا هي منفصلة من حيث ماهيتها، ومن ثم فهي متواصلة، وهي خلاصة مناهج المنطق التي تعني بوصف ديناميكية الطبيعة في أدائها الفريد، واستبعاد ما لا ضرورة له من الأشياء غير الموثوق بها».

ولا يكتفي سانتيانا هنا بالمساواة بين مفهوم المادة والجوهر، فعلاوة على ذلك رأي فيلسوفنا أن الجواهر والماهيات تعملان بشكل متشابه، حيث تصبحان عبارة عن موضوعات واحدة، وفي التعبير الحديث تصبحان الجواهر والماهيات عبارة عن مفعولات، وذلك يكون عند تفكير العقل فيهم، كما أن الماهيات تصبح محمولات عندما تخص الجوهر أو عندما تخص ماهية أكثر تعقيدا أو عندما تخص التصنيف المتراكم بينهم في العلاقة بين شيئا وآخر[3].

وهنا يلجأ سانتيانا إلى تبني التعريف الذي استخدمه اسبينوزا لمعني الجوهر، حيث عد سانتيانا الجوهر طبقًا لتعريف اسبينوزا هو الشيء الموجود في حد ذاته،

(1) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua op. cit, P. 505.

(2) موريس جروسمان: دراسة واقعية حول فلسفة الشك في عالم سانتيانا، مرجع سابق، ص 262.

(3) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua, op. cit, P. 586.

ويتم إدراكه من خلال ذاته، ولذلك لا يوجد شيئا يمكن أن يكون عرضيا بشكل كبير بالنسبة لمفهوم الجوهر أكثر من كون الجوهر وجودًا أحيانًا للفاعل أو الموضوع في بعض التأكيدات[1].

لذلك تعتبر فلسفة سانتيانا في أصل الأشياء أو في فهم العلاقة بين الجوهر والمادة، أو بين الجوهر والماهية عبارة عن محاولة فلسفية كبري، وهي بداية صحيحة نحو فهم الواقع الطبيعي.

(4) الصفات الأساسية للمادة

يمكننا معرفة بعض الصفات الجوهرية لما تعنيه كلمة «مادة»[2] ـ كما وردت في كتاب سانتيانا «عالم المادة» Realm of Matter ـ أو عند المؤرخين الذين تناولوا فلسفة سانتيانا بالشرح والتحليل ـ أمثال «وليم راي دينس» William Ray Dennes الذي كتب بحثًا يحمل عنوان «مادية سانتيانا» Santayana's Materialism فما هي تلك الصفات الأساسية لمفهوم فكرة المادة في فلسفة سانتيانا؟

(1) يصف سانتيانا ـ المادة بأنها توجد خارج الفكر، فهي لا تأتينا عن طريق الحدس Intuition ـ كما تأتي الماهيات Essences ـ أي أنها توجد خارج الذهن أو الفكر[3].

(1) Ibid: P. 586.

(2) للوقوف على كنه فلسفة سانتيانا المادية، لابد لنا من معرفة المصطلحات التي استخدمها لمعني كلمة مادة، فمن المألوف لدارسي الفكر الفلسفي، أن كلمة مادة تعني في اللغة الإنجليزية Matter، وأن كلمة جوهر Substance، ولكننا في قاموس سانتيانا الفلسفي، نري أنه يستخدم الكلمتين الإنجليزيتين بمعنى واحد هو المادة، فقد لاحظنا أنه في مقدمة كتابه «عالم المادة» استخدم كلمة Matter بمعنى مادة، واستخدم Substance بمعنى جوهر، وذلك عندما قام سانتيانا بالرد على اللاماديين أو الميتافيزيقيين وفلاسفة الأخلاق الذين يهاجمون النزعة المادية، ولكنه في الفصل الأول من كتابه السالف عرض كلمة Substance بمعنى مادة، وذلك عندما قام بعرض صفات المادة الأساسية، بذلك يتضح لنا أن سانتيانا يستخدم كلمة جوهر ومادة بالتبادل أي أنه يمكن لأحداهما أن تحل محل الأخرى، وعليها تكون الكلمة المستخدمة هنا هي Substance وقد ترجمتها إلى معنى «المادة».

(3) G. Santayana: Realm of Being, op. cit, p. 202.

وهذه الخاصية التي ينعتها سانتيانا للمادة يجب أن تكون مرتبطة بأي وجود نؤمن به، وحتي تزودنا هذه الكلمة بشعور قليل على الأقل، فإن المادة هنا يجب أن تشمل كافة أنحاء الوجود[1].

(2) تشغل المادة حيزًا من الوجود، عندما توضع داخل إطار الفعل أو العمل، حيث تتكون المادة من أجزاء، وتشكل طبيعة دينيوية في ذلك الفضاء، وتعتبر جميع أجزاء تلك المادة المفترضة خارجية عن الأجزاء الأخرى.

(3) تدخل المادة في تشكيل الفعل، أو العمل Action، ويتضمن هذا العمل التغيير، لأن المادة في حالة جريان مستمر، وتحدث هذه التغييرات بشكل مستمر في العلاقات بين أجزاء المادة، وفي وقت طبيعي محدد.

(4) تتوزع المادة توزيعًا غير متساو تبعًا لتغيير وضع الفعل ورد الفعل Reaction فضلًا عن تغير تشكيل المادة في حيز العمل The Filed of action ـ والزمن الطبيعي Physical Time.

(5) يختلف تكوين المادة من وضع لآخر، كما يختلف وضع المادة بالنسبة لمن يلاحظها[2].

(6) تشكل المادة الكون النسبي[3].

(7) لا تعطينا النزعة المادية عند سانتيانا أي مواصفات عن معنى كلمة المادة، ولكنها تعني عنده «أي شيء وكل شيء يوصف بالوجود، وتستبعد من معناها العدم Nothing ـ الذي لا يمكن أن يتصف بالوجود»[4].

وعلى كل حال، فإن سانتيانا يرفض أن يتخلي عن العديد من النظريات لمفهوم المادة، وذلك على أساس أن المادة التي يمكن أن ندركها تتوقف في كونها ممكنة

(1) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, op. cit, p. 135.
(2) G. Santayana: Realm of Being, op. cit, pp. 202, 203.
(3) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, op. cit, p. 135.
(4) William Ray Dennes: Santayana's Materialism, in the Philosophy of George Santayana, Edited by P. A. Schilpp, Tudor Publishing Company, New York, 1951, P. 422.

الحدوث «أي عبارة عن مرمي الفعل وهدفه» وتصل المادة بهذه الطريقة إلى صفاتها الأساسية[1].

أما العنصر الرابع من الصفات المفترضة للمادة ينطوي في أن جميع أجزاء المادة ليست متشابهة في الخاصية، وأيضا أن أي فعل آخر للمادة لا يمكن أن يؤثر بدون أن يحدث تغيرا على فعل آخر[2].

(8) ولكن يرى سانتيانا أن المادة توجد في كائنات طبيعية مختلفة، فأحيانًا تأخذ صورة حيوانات يمكن أن تتحلي بالشعور، أو صور ذهنية، أو أفكار. ولكن الوقائع العقلية عبارة عن حقائق غير مادية، حيث لا تقدم أي أفعال نحو الفعل، كما لا تمارس أي تأثير طبيعي في أي من الأفعال[3]. فالوقائع العقلية ذاتها عبارة عن إيضاحات لهذه المادة أو تضمين لها، حيث إن أجزاء المادة عبارة عن حدث طبيعي بشكل تام، وهذا الجانب المادي ينطوي على خطة للفعل، ولهذا كانت أجزاء المادة هامة وضرورية ومرتبطة بالفعل كعلامة يتم تكوينها والتحكم فيها عن طريق صيرورة المادة التي تظهر داخلها[4].

(9) كما تعتبر حركة المادة في مجال الظواهر الطبيعية مستمرة لا تتوقف، إلا إذا أخرجت عن نطاق الفعل، أو العمل بقوة خارجة عنها[5].

(10) تظل كمية المادة هي هي، لا تزيد ولا تنقص برغم استمرار حركة الفعل وتغير صفاتها وكيفياتها وأشكالها، فالمادة لا تفني ويمكن أن توجد من العدم.

وهنا يعقب «اسبريج» على هذه الخصائص التي أضفاها سانتيانا على معنى المادة، فرأي أن مناقشة سانتيانا لخصائص المادة تبدو أقل وضوحا مما يجب أن تكون عليه تلك الصفات، وذلك بسبب فشل سانتيانا في أن يميز العلاقات الخارجية بين الأشياء المحتملة وتلك الوقائع الحقيقية أو أطوار ومراحل الأشياء[6].

وأما عن معنى كلمة مادة، فإننا نجد سانتيانا يخبرنا عنها قائلًا «أنا لا أستطيع أن

(1) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, op. cit, p. 135.
(2) Ibid: p. 135.
(3) Ibid: p. 138.
(4) Ibid: p. 138.
(5) G. Santayana; Realm of Being, op. cit, pp. 233, 234.
(6) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, op. cit, p. 137.

أفهم أي فكرة إنسانية عن ما تعنيه كلمة مادة، ولكنها في أكثر معانيها الرائجة، أو العلمية والقديمة أو الحديثة يكون معناها بشكل واضح اسم للجوهر الفعلي Actual Substance» ـ الذي يتكون منه العالم الطبيعي مهما يكن ذلك الجوهر[1].

(5) النزعة الطبيعية

الاهتمام بالطبيعة ليس وليد الفلسفة المعاصرة في القرن العشرين، فإذا كان الفيلسوف محل الدراسة يعد إمام النزعة الطبيعية في القرن العشرين، إلا أنه لم يكن هو أول من صاغ للفلسفة الواقعية أساسًا طبيعيًا، حيث أشار سانتيانا بنفسه إلى أن الفلسفة اليونانية كانت تؤمن بالطبيعة والسياسة أكثر من إيمانها بالروحانيات، ولم يتيسر للفلسفة اليونانية حتى الآن أن تتحول إلى هذا الندم المتعالي الذي لعب دورًا كبيرًا في الفكر الهندي القديم، كما وجد ذلك الندم الترنسندنتالي بعد ذلك في التأملات المسيحية[2]. وقد أشار سانتيانا إلى الفلسفة اليونانية قبل سقراط، حيث توصل الفلاسفة اليونانيون بشكل تقليدي إلى حقيقة الفلسفة الطبيعية، والتي تم تأسيسها وإعادة بنائها متأخرًا على يد اسبينوزا وكذلك العلم الحديث، فالفلاسفة الطبيعيون كما يقول سانتيانا يتنازعون فيما بينهم البين، وذلك بسبب كونهم مرتبطون في مهمة إدراك ذلك الموضوع الذي لم يتحدد بعد، فهم حتى الآن مازالوا يرسمون ويتصورون البناء والتاريخ لذلك العالم الطبيعي الذي يحيا فيه كل واحد منهم[3].

واستكمالًا لما سبق، فقد أكد سانتيانا على أن أي دراسة أو وصف للأشياء الطبيعية في مستواها الخاص عبارة عن دراسة أو وصف للمادة، وأن أي فلسفة لكونها مادية تماثل فلسفتي، حيث تعتبر دراسة أو علما للطبيعة فهي تعمل على درجة عالية من الكفاءة[4]. ولهذا السبب كما يقول سانتيانا استخدمت كلمة النزعة الطبيعية عوضًا عن كلمة النزعة المادية، وذلك لأعبر عن معتقداتي الأساسية، ولكن كلمة النزعة الطبيعية تبدو انفتاحية أكثر من اللزوم، حيث تستخدم كتعبير عن المراوغة السيئة،

(1) William Ray Dennes: Santayana›s Materialism, op. cit, p. 421.
(2) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua, op. cit, P. 509.
(3) G. Santayana: General Confession, op. cit, P. 22.
(4) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua, op. cit, P. 507.

فالنزعة الطبيعية ربما تشمل في داخلها النزعة السيكولوجية، أو ربما تعني فقط إحدي الاهتمامات الأخلاقية أو إحدي النظريات المنطقية المتاحة للتفكير المطلق، أما مصطلح المادية فإنه يبدو لي أكثر أمانًا لأنه أكثر دقة[1].

ولقد أشار سانتيانا إلى أن كلمة الطبيعة أحيانًا تكتب بحروف كبيرة كما لو كانت الطبيعة تمثل العنصر الإلهي أو العنصر الشخصي، ففي الفلسفة القديمة والإدراك العام وكذلك العادات والقوي جميعها كانت تخص الطبيعة التي تتضمن بالتأكيد خاصية أخلاقية في تكوين الشخصية. فالشعراء يمدحون الطبيعة، وعلماء اللاهوت يقومون بتكرار مناهجها الرائعة في نظام واضح، فكل هذه الأساطير عن الطبيعة تكون أساطير طبيعية، وربما توضح هذه الأساطير بشكل أفضل التقدير الكامل لماهية الطبيعة خير من العلوم الفيزيقية الدقيقة[2]. ولذلك كانت كلمة الطبيعة كلمة شعرية بدرجة كافية، حيث تقترح للإنسان الفكرة الطبيعية لأصل نشأته، كما تسيطر على وظيفته الرئيسية[3]. فإذا كانت الطبيعة هي النسخة المطابقة والنسخة العظيمة للفن[4]، فإن الطبيعة كما يقول سانتيانا «عبارة عن لوحة فنية موجودة في الذاكرة قابلة لأنقش عليها الرسم المنظوري Perspective لتجربتي الشخصية»[5].

ولقد بدت النزعة الطبيعية عند سانتيانا عبارة عن نسق ونظام أولى وأساسي، أو بالأحري نستطيع القول بأن النزعة الطبيعية ليست نظام خصوصي على الإطلاق، حيث إن الهيكل الذاتي والحتمي للمعتقدات المعقدة في الحياة الحيوانية، يجعل هذه المعتقدات لها أنظمة الفلاسفة المتنوعة من حيث إن تكون ممتدة وشاملة للبيئة الخارقة التي تكون طبيعية بالفعل في جوهرها الخاص بها، أو تكون عبارة عن تأويلات أو تفسيرات Interpretation (كما عند أرسطو واسبينوزا) أو تكون عبارة عن مجموعة استنكارات Denials (كما في المذهب المثالي)[6]. وعليها لا يمكن أن

(1) Ibid: P. 508.
(2) G. Santayana: Scepticism and Animal Faith, op. cit, PP 233, 234.
(3) Ibid: PP. 237, 238.
(4) Ibid: P. 236.
(5) Ibid: P. 242.
(6) George Santayana: Dewey›s Naturalistic Metaphysics, in: the Philosophy of John Dewey, edited by, p. A. Schilpp, Tudor Publishing company, New York, 1951, p. 245.

تكون النزعة الطبيعية أكثر رومانسية، وذلك لأن الطبيعة حينئذ سوف تصبح عبارة عن قصة، ولا يمكن أن تكون هي العالم[1].

وعليها أصبحت فلسفة سانتيانا فلسفة طبيعية تفسر الطبيعة بنفسها، فهو يذهب كما يذهب الفلاسفة الواقعيون ـ إلى أن وعي الإنسان بشيء ما من أشياء العالم الواقعي دليل على وجود ذلك الشيء كما هو في ذاته خارج الذات الواعية له، فمعرفة الإنسان للشيء الذي يدركه هي صورة تمثل ذلك الشيء تمثيلا صحيحا، على أن الانسان إذ يتصل بالأشياء ليدركها، فإنما يتصل بها اتصالًا مباشرًا لا تكون فيه حلقي وسطي بين الذات العارفة والشيء المعروف[2]. لأن هدف الفيلسوف الطبيعي كما يقول سانتيانا ـ «هو وصف العالم منذ بدايته Its beginning» (إن كان له بداية) وأن يحدد التحولات Transformations ـ التي تمت فيه عن طريق التحليل وليس عن طريق التصور[3].

ولذلك يستطيع العالم في النزعة الطبيعية عند الفيلسوف محل الدراسة أن يحتوي بكل سهولة شتي الأشياء غير المادية تحت إطار وجودها المادي، وذلك مثل الكلمات والأحاسيس والمشاعر والأفكار، والتي من المحتمل أن يتم تمييزها في هذه الخبرة الإنسانية، حيث أننا غير ملزمين أو مجبرين في النزعة الطبيعية أو هذا الاتجاه المادي بأن نتجاهل هذه الأشياء غير المادية. فالخاصية الأساسية في الأشياء غير المادية أنه يمكن إدراكها عن طريق كونها أسماء أو أشكال أو وظائف أو لكونها عبارة عن نتائج متلازمة لتلك الأشياء المادية[4]. كما أن الكائنات الطبيعية التي تظهر في عالم الواقع من المشاعر والأحاسيس الخاصة بالإنسان الطبيعي هي عبارة عن صورة أخلاقية لهذه الحياة الطبيعية[5]. فعلي سبيل المثال ـ إذا كنت أدرك هذا القلم في يدي، وهذه الورقة أمامي، فلابد أن يكون القلم والورقة موجودين وجودًا حقيقيًا لا يجوز الشك فيه[6].

(1) Ibid: P. 253.

(2) زكي نجيب محمود: من زاوية فلسفية، مرجع سابق، ص 154.

(3) G. Santayana; Realm of Being, op. cit, p. 194.

(4) G. Santayana: Dewey›s Naturalistic Metaphysics, op. cit, p. 246.

(5) Ibid: p. 246.

(6) زكي نجيب محمود: فلسفة وفن، مرجع سابق، ص 120.

فإذا سأل سائل ـ كما يسأل الفلاسفة ـ ومن ذا أدراك حين تعي مجموعة من الصفات مجتمعة، ككون القلم وشكله وصلابته بين أصابعك، أن تكون هذه الصفات قد اجتمعت في شيء خارجي له وجود مفارق لوجود أفكارك الكائنة في ذهنك أنت؟ أليس كل ما تعرفه معرفة مباشرة هو خبرتك أنت التي هي في دخيلة نفسك؟ فما الذي يسوغ لك أن تجاوز هذه الخبرة الداخلية المباشرة لتزعم أن شيئًا خارجيًا يقابلها[1].

أجاب سانتيانا ـ بما أسماه «الإيمان الحيواني» Animal Faith ـ «وهو عبارة عن غريزة فطرية إدراكية أو يقين تجريبي أو حتى كونه عبارة عن سببًا عمليًا»[2]. ففي كيان الإنسان الطبيعي هذا «الإيمان» بأن معرفته الداخلية صورة من عالم خارجي موجود، على اختلاف ما بين الجانبين، فالجانب الداخلي وعي وعقل، والجانب الخارجي مادة[3]. وقد أكد سانتيانا على ذلك الإيمان الحيواني باعتباره مصدرًا للمعرفة، حيث يعد عند فيلسوفنا مصدر ثقته الوحيد في هذه الحياة الطبيعية، فذلك الإيمان هو نفس الشيء الذي يعطي للطفل الصغير الثقة والآمان تجاه والديه أو تجاه الحيوانات الأليفة، كما أن هذا النمو العقائدي المخيف للدين الإنساني هو امتداد بهذا الشعور في أن الطبيعة هي الشخص أو مجموعة من الأشخاص في صفات ثابتة، ولكن في شخصيات سهلة التطويع[4]. ولا يعني ذلك أن تكون الفلسفة الطبيعية عبارة عن فكرة علمية، فيؤكد سانتيانا ذلك بقوله «إن فلسفتي الطبيعية ليست فكرة علمية، بل هي اقتناع عادل جاءتني كما جاءت أبي من خبرة العالم وملاحظته.. ويبدو لي أن غير الماديين لا يحسنون الملاحظة»[5].

فإذا كان برتراند رسل قد أخبر سانتيانا في انسجام جميل، أنه يتنهد كعاشق للمعرفة، ويطيع كابن للطبيعة[6]، ولكن سانتيانا يعتقد أن رسل كاد أن يدرك كيف يكون ذلك الإيمان وظيفة أساسية للشيء الذي أقوم بوصفه، حيث اعتقد رسل أن

(1) زكي نجيب محمود: من زاوية فلسفية، مرجع سابق، ص 155.
(2) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua , op. cit, P. 585.
(3) زكي نجيب محمود: من زاوية فلسفية، مرجع سابق، ص 155.
(4) G. Santayana: Scepticism and Animal Faith, op. cit, P, 234.
(5) هنري توماس ودانالي توماس: المفكرون من سقراط إلى سارتر، مرجع سابق، ص 471.
(6) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua, op. cit, P. 585.

الإيمان الحيواني الذي ينادي به سانتيانا عبارة عن بديل سيء للمعرفة في مبادئها، وذلك كما يعتقد «بانفي» Banfi أن الماهيات بديل للموضوعات غير المعروفة في نظرية المعرفة، ولكن الماهيات أوضح وأقرب كما يقول سانتيانا من أي شيء أخر قد أحتاج إلى البحث عنه أو تأكيده أو حتى احترامه، وهذا الإيمان الحيواني بعيد كل البعد عن كونه بديلًا للمعرفة، إذ أن هذا الإيمان هو مصدر للاستعلام، فبسبب كوني أمتلك ذلك الإيمان الحيواني، وأعتقد بأنه يوجد شيء يمكن اكتشافه أو يمكن الحصول عليه، فأستطيع أن أضع في الإعتبار أن إدراكاتي هي إدراكات للمعرفة، وأن نضع في الإطار تلك الافتراضات والتي بدون الإيمان سوف تصبح جميعها عبارة عن حدس للمعلومات والبيانات[1].

لذلك لابد من الركون إلى هذا «الإيمان الحيواني» ـ لكي نفرق بين حالتين مختلفتين من حالات الإدراك: أولاهما حالة نثق فيها بأن «الجوهر» ـ أو إن شئت فقل «الفكرة» ـ الماثلة في أذهاننا هي كذلك متجسدة في شيء عيني خارجي، وأما الثانية وهي حالة نتعلم فيها أن «الجوهر» الماثل في الذهن ليس متجسدًا في شيء عيني خارجي، كما هي الحال في المدركات العقلية وفي التصورات الخيالية وما إلى ذلك[2].

وذلك لأن المادة بتجديدها الذاتي هي أعمق شيء في العالم، إنها أبعد شكل لكل شيء يمكن اكتشافه، فهي العالم الممكن اكتشافه بكامله في حركته الأساسية، إنها ما ينبري دائمًا أمامنا في الحس وفي الفن ويستبد بمصائرنا[3]. وعليها يكون عندنا وجودين: وجود عيني يقابل الأفكار ذوات المسميات الخارجية، ووجود ذهني لمدلولات الأفكار الأخرى التي نعرف أن ليس لها مسميات خارجية[4].

إن الفرق الجوهري بين الوجودين: الفكري من جهة والفعلي من جهة أخرى، هو نفسه الفرق بين ما كان أرسطو قد أسماه بالوجود بالقوة والوجود بالفعل، فالأول وجود بالإمكان فقط، مستعد لأن يخرج إلى الفعل إذا ما توافرت الظروف المواتية، والثاني وجود متعين متجسد في أشياء واقعية، وواضح أن الموجودات الممكنة أكثر

(1) Ibid: P. 586.

(2) زكي نجيب محمود: حياة الفكر في العالم الجديد، مرجع سابق، ص 204.

(3) جورج سانتيانا: مولد الفكر وبحوث فلسفية أخرى، مصدر سابق، ص 127.

(4) زكي نجيب محمود: من زاوية فلسفية، مرجع سابق، ص 156.

عددًا من الموجودات الفعلية، لأن تصور العقل للممكنات لا نهاية له ولا حدود، وأما الموجودات الفعلية فمقيدة بالواقع الكائن المتحقق، فكل موجود فعلي كان من قبل موجودًا ممكنًا، ثم تحقق[1].

إذًا هناك عالمان: عالم الممكنات وعالم الأشياء المتحققة، وهذا العالم الثاني مسبوق دائمًا بالعالم الأول، إذ محال على شيء أن يتحقق وجوده في العالم المادي إلا إذا كان قبل ذلك فكرة في عالم ما هو ممكن، حتى إذا ما برزت إلى الوجود الفعلي حفنه من بحر الممكنات الزاخر، كان لنا بذلك ما نسمية «بالحق» ـ فما «الحق» إلا الممكن الذي تحقق ظهوره بالفعل، ولكننا قلنا إنه كان يمكن لغيره من الممكنات أن يظهر بدل هذا الذي ظهر فعلًا وأصبح «حقًا» وإذن «فالحق» أمر عرضي لا تحتمه الضرورة العقلية المنطقية، وأعني بذلك أنه لم يكن هناك ما يحتم أن يظهر هذا الذي ظهر دون سواه، أي أن ما نصفه بأنه «الحق» كان يجوز ألا يحدث حدوثًا فعليًا، وعندئذ كان غيره هو الذي سيوصف بأنه «الحق»[2].

ويفسر سانتيانا ما سبق عن طريق المبادئ المادية الصرفة، وذلك هو ما يميز فلسفته بأنها فلسفة طبيعية مادية رغم كل ما اتصف به من شاعرية وروحانية، وذلك أنه جعل مبدأ اختيار العالم الفعلي الواقع من بين العوالم الكثيرة الممكنة لا هو بالمبدأ الخلقي كما ظن «ليبنتز» (1617-1646) Leibniz. ولا هو بالمبدأ العقلي كما ذهب «وايتهد» (1861-1947) Whitehead بل هو مبدأ مادي صرف[3].

لقد أكد سانتيانا ـ أن نزعتيه المادية في علم الطبيعة، والإنسانية في الأخلاق، تعتبر أحد أنظمة الفلسفة المتكاملة، حيث كانت تلك النزعات هي مضمون الفلسفة اليونانية قبل سقراط، تلك الفلسفة التي كانت هيلينية حقًا، وتوافقت مع الحركة التي أنتجت أساس الأساليب اليونانية من حكومة يونانية وفن يوناني، والحركة نحو البساطة، والحكم الذاتي، والمعقولية في كل شيء من الملبس إلى الدين، وهكذا

(1) المرجع سابق: نفس الصفحة.

(2) المرجع السابق: ص ص 156،157.

(3) زكي نجيب محمود: حياة الفكر في العالم الجديد، مرجع سابق، ص ص 207،208.

كانت فلسفة عصر النهضة الأوروبية، حيث كانت إعادة تنظيم للعلم والحرية في العصر الحديث قبل «بيكون» و «اسبينوزا» (1963 – 1977) Spinoza بل قبل المدرسة المعاصرة بأكملها التي تري في العلم مضمون الوقائع الحقيقية، وتري سعادة الرجال على الأرض في مثاليتها، هذا النظام يدعي بالنزعة الطبيعية[1].

ولكن.. ما الدليل الذي يمكن أن يكون لوجود الطبيعة فيما تعنيه هذه الكلمة؟

يقول سانتيانا «إذا كنت أتحدث عن الكون Universe بشكل عام، فإنه لا يمكن أن يكون هناك دليل قاطع، فالكون بالطبع يجب أن يكون في كينونته الحالية، فلا يجب أن يكون له صفة أو خاصية، فالكون يجب أن يمثل فكرة الماهية، ولكن إذا أخذت الكلمة بالمعني الكلي، فإنها ربما تعبر عن الفوضي achaos التي من خلالها لا يوجد شيئًا يكون مقدرًا، ولا متقدمًا أو متطورًا باستمرار، والتي فيها الأجزاء تكون ذاتية حول المركز Self- Centered وتكون فيها الأحداث تلقائية[2]. وأن مثل هذا الكون الفسيح لا يمكن أن ندعه بالطبيعة لأنه لا يعطينا الميلاد، لأنه لا يملكه، ولا يعطينا التنشئة أو التربية، أنه لا يحيطنا بأي تأثيرات ثابتة أو مألوفة لدينا، أنه لا يعطينا أية بذور لنمو شجاعتنا أو تحذيرنا[3].

أما الدلائل لوجود الطبيعة فيجب أن نسعي وراءها في مكان آخر، في المنطقة التي تسمي بمنطقة الموناد أو الذرات، والتي تعتبر كيان داخلي لكل موناد، وفي هذه الحالة فإن المواد أو الجواهر Substance التي قد استخدمتها في إذعان غرائزي الحيوية، فإنها تبدو كأنها تتصرف كما لو كانت أجزاء للطبيعة[4].

ويؤكد سانتيانا نزعته الطبيعية اليونانية الأصل في قوله»هي عبارة عن مذهب طبيعي فيما يتصل بأصل الجنس البشري وتاريخه، ووفاءً في الشعور الأخلاقي ملهم من العقل، الذي يتصور به الذهن البشري الحقيقة والسرمدية، ويشارك فيهما

(1) G. Santayana: Three Philosophical Poets, Doubleday Anchor Books, New York, 1953, p. 13.
(2) G. Santayana: Scepticism and Animal Faith, op. cit, P, 235.
(3) Ibid: P, 236.
(4) Ibid: P, 236.

بالفكرة»[1]. وبالتالي تصبح النزعة المادية العامة في فلسفة سانتيانا مثل أي نظام للفلسفة الطبيعية، لا تحمل معها وصايا ولا نصائح، فهي تصف العالم مجردًا، وتحيل كل ما في العالم إلى أرض مادية[2].

تعقيب عام

في ثنايا الصفحات السابقة، قمت بعرضٍ عام للملامح الرئيسية للفكر الفلسفي عند جورج سانتيانا، وعلى الأخص فلسفة سانتيانا المادية، والتي اتصفت بالفلسفة الطبيعية حتى عُدّ سانتيانا رائدا للاتجاه الطبيعي في الفلسفة المعاصرة.

وظهرت في هذه النزعة الكيفية التي تأثر بها سانتيانا بفلاسفة اليونان القدامي، وكذلك الحضارة الهندية القديمة وبخاصة إلى تعاليم جوتامابوذا. ولكن هل ينبغي علينا قبول هذه النزعة المادية التي ذهب إليها سانتيانا؟ وهل ينبغي علينا التسليم بتلك النزعة الطبيعية المادية في جوهرها التي نادي بها فيلسوفنا ضد الفلسفات المثالية والتجريبية الإنجليزية؟

إنه من العجيب أن يتجه شاعر روحي، ومفكر عميق، مثل سانتيانا إلى ربط عنقه في طاحون فلسفة مادية عجزت بعد جهود قرون عدة عن تفسير نمو شجرة أو ازدهار زهرة أو ابتسامة طفل. ولكن ـ إذا لم يكن للإدراك تأثير على الجسم في حركته، فلماذا تطور ونما ولماذا بقي في عالم لا بقاء فيه لأشياء عديمة النفع والتأثير[3].

إذا كانت هذه رؤية «ول ديورانت» لفكر سانتيانا الفلسفي، فإن هناك جون ج. ستوهر[4]. يرى أن سانتيانا في صدد إحاطته بالمادة، لايملك سوى التسليم بغير كلام

(1) هربرت شنيدر: تاريخ الفلسفة الأمريكية، ترجمة/ محمد فتحي الشنيطي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1964، ص ص 384،385.

(2) G. Santayana: Three Philosophical Poets, op. cit, P. 36.

(3) ول ديورانت: قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، مرجع سابق، ص ص 606،607.

(4) جون ج. ستوهر: مذهب الطبيعة.. غير الطبيعي عند سانتيانا، بحث منشور في كتاب ـ تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال 200 عام، ترجمة/ حسني نصار، مراجعة/ مراد وهبه، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1983، ص 292.

ـ إزاء لانهائيتها غير المعروفة، ثم يصفها بأنها غير محددة، وأنها جزء لا شكل له يحيط بالجوهر، كما أن جوهر المادة لا يعتبر مادة بذاته، فهو شيء لا مادي ولا زمني، لأن المادة شيء غير مدرك بطبيعته.

وإذا كانت المادة ـ كما يرى سانتيانا لا شكل لها، ولا خاصية، وأنها لذلك لا يمكن إدراكها أو معرفتها، فإن تحقيق خواص عالم المادة، أو العالم الطبيعي وتحديدها يصبح لا معنى له، كما كيف يتسني لنا أن نشخص شيئًا لا يمكننا معرفته أو تحديد خواصه[1]..

وهكذا يقوم مذهب سانتيانا المادي على أسس متعارضة، تزعم لنفسها الاتساق حيث يقول: إن عالم تجاربنا المادي إن هو إلا صورة ذهنية أو لمحه عابرة، لعالم أرواحنا الذي هو عالم ماهيات، كما أننا لنلمح هذا العالم الحقيقي ـ عالم الماهيات ـ في لحظات نشوتنا، وفي مثل تلك اللحظات نتحقق من أن العالم وحدة حياة متماسكة تتحرك في تناسق متجهة نحو الله[2]. وبذلك يتضح مدي ما وقع فيه سانتيانا من الخلط وسوء الفهم خلال مناقشاته بين المادة كمعني، وبين نسيجها (أو ماهيتها) الذي تتكون منه[3].

هكذا تبدو النزعة الطبيعية عند سانتيانا ليست معصومة من الخطأ، أو بعيدة عن النقد، فقد هيأ سانتيانا لنفسه الانتقاد، حيث اعترف بأنه إذا لم تكن هناك قاعدة طبيعية فإنه لا يمكن أن تكون هناك معرفة إنسانية مطلقًا، وحتي إن كانت تلك النزعة الطبيعية أو ما وراء الطبيعة قد أُدِينت بأنها لا تملك هذه القاعدة التطبيقية في عالم الحقيقة.

كما أن سانتيانا قد أكد أن الإيمان بالطبيعة يعيد إلينا تلك القدرة على فهم ذلك الإحساس الدائم الذي غالي نحو الحياة الحيوانية، ويصبح فيها العالم عبارة عن بيت وأصبح فيها أنا فيلسوف[4].

(1) المرجع السابق: نفس الصفحة.

(2) هنري توماس: أعلام الفلاسفة ـ كيف نفهمهم، مرجع سابق، ص ص 390، 391.

(3) Joseph L. Blau: Men and Movements in American Philosophy, Prentice – Hall, Inc, New York, 1955, P. 330.

(4) G. Santayana: Scepticism and Animal Faith, op. cit, P 238.

من خلال ما سبق نستطيع أن نري مدي الخلط واللبس والغموض الذي أحاط فلسفة سانتيانا في إطارها العام، وذلك حين عرض لفلسفته المادية الطبيعية والتي يعد إمامها في الفلسفة المعاصرة، ولكن حتى يكون بحثًا منهجيًا موضوعيًا إلى حد ما، أقولُ أن سانتيانا عند عرضه لمذهبه الفلسفي خلال كتبه صرح في بداية كتابه «النزعة الشكية والإيمان الحيواني» Scepticism and Animal Faith ـ «أننا سنجد نظامًا آخر للفلسفة، فإن وجد القارئ في نفسه رغبة في الابتسام فسابتسم معه فأنا لا أحاول أن أقدم للقارئ إلا المبادئ التي يتجه إليها عندما يبتسم[1]. ويقول أيضًا «أنا لا أطلب من أحد أن يفكر بما أفكر فيه، إذا كان يفضل تفكير الآخرين، والأفضل إذا استطاع أن ينظف نوافذ روحه، لينشر جمال المنظر وتنوع صوره، وإشراق ضوئه أمامه»[2].

ومن خلال تلك الرؤية السانتيانية يتبلور مذهب سانتيانا الفلسفي، حيث اعترف بنفسه أنه يقدم نظامًا آخر للفلسفة، كما أنه لم يجبر أحدًا على الأخذ به والتسليم بصحة فلسفته.

(1) G. Santayana: Scepticism and Animal Faith, op. cit, P.V.

(2) ول ديورانت: قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، مرجع سابق، ص 603.